مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُمتَحنَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الممتحنة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الممتحنة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

استهلت سورة الممتحنة انطلاقتها بنداء الله تعالى للمؤمنين، لينهاهم عن موالاة الكافرين، فقال تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ يا أيها المصدقون بالله ربكم، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وبدينه القويم، لا تتولوا عدو الله وعدوكم، فتجعلونهم خُلّصاً وأحباءً، فتفضون وتصرفون إليهم مودتكم، فيحصلون منكم على مبتغاهم من أخباركم وأسراركم.

وافتتح الله تبارك وتعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بما يفيد المدح والثناء، مع التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، إذ يستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] فهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه لمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم، وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

وبعد النداء لهم، ومخاطبتهم بصفة الإيمان يحذرهم تبارك وتعالى من موالاة الكافرين بأي صفة من مفردات المودة والموالاة. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ إياكم أن تتخذوا من حمل العداء لربكم أولياء، وهم يحاربون دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم. فجمع هؤلاء الكفرة بين معاداتهم لربهم، ومعاداتهم للمؤمنين ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وقد قرن الله تعالى بين عداوتهم لربهم بمحاربة دينه، وبين عداوتهم للمؤمنين الحاملين لدين الله سبحانه وتعالى. مما يبين العلاقة بين المؤمنين وبين ربهم، وأن من كره الدين فقد كره حامله. فحمل العداء لله تعالى وللمؤمنين. فإن عدو الله تعالى والمؤمنين واحد. وهم الكفار.

ثم عين وحدد عَزَّ وجل مرتكز ومحور النهي، وهي موالاتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ والموالاة تجمع دلالة المناصرة والطاعة، والمحبة والتقرب. فلا تتخذوا هؤلاء الأعداء أولياء، بناء على القرابة والصلة والرحم. بما يفيد أن مِن لوازم اختلاف الدين انتفاء الموالاة. لأن اختلاف الدين يحمل قدراً من البغض والعداء. كما ورد النهي بصيغة المبالغة، بدلالات ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والتي أفادت المبالغة في الموالاة. لأن الأخذ للشيء يعني ملازمته، فلا تفتعلوا الأخذ المنافي للأصل. وهو عدم اتخاذهم أولياء. وهذا النهي قد تضمن غاية الدقة في مبناه ومعناه، مع بلاغة الأسلوب الذي أوصل المراد الكبير بأقل الألفاظ. وهذا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. كما أنه إعجاز في تحليل مُوجب النهي، بما يغرس في الْمُتَلَقي والْمُخَاطَب القناعة الكاملة بمضمونه ومحتواه.

فلا تتخذوا من اجتمعت فيهم العداوة لربكم ولكم ﴿ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أي: خلصاء وأحباء. فلا تتولوا عدو الله وعدوكم، فتجعلونهم خلصاء وأحباء، فيؤدي ذلك إلى أن تُفضوا إليهم بالأسرار، فيحصلون منكم على مبتغاهم من أخباركم وأسراركم.

ثم ذكر تبارك وتعالى تبعات تلك الموالاة، وما ينجم عنها من الشر للمؤمنين. فقال عَزَّ وجل ﴿ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ فينجم عن اتخاذهم أولياء هو أنكم ﴿ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ أي: تُوصلون إليهم المودة. وهذا قول الفراء، وأبي عبيدة، وابن قتيبة، والجمهور. وعن الزجاج: تُلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأسراره بناء على المودة التي بينكم وبينهم(١) فالموالاة جالبة للمحبة، والمحبة تُفضي إلى التوسع في نقل الأخبار. لأن الكلام يحدث معهم من غير تحرز، فتذكرون لهم الأخبار التي تكون بالنسبة لهم غنيمة بمعرفتها عنكم. وفي هذا تحذير وتعليم وتنبيه للصحابة رضي الله تعالى عنهم، ولمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة، بأن يحذروا من تبعات المودة للكافر بسبب القرابة والمنافع ونحوها. مما يبين أنه يترتب على اختلاف الدين اختلاف المصالح، وتباينها. فيجب الحذر من ذلك عند التعامل مع أعداء الله تعالى في كل وقت وحين.

ثم يذكر الله تبارك وتعالى السبب والمرتكز الرئيس في النهي ﴿ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ وقد حصل منهم الجحود والنكران للحق الذي جاءكم من ربكم، فقبلتموه طاعة لربكم، بينما كفروا به استعلاء وتكبراً. ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الخاص بعد أن ذكر السبب العام. فقال جَلَّ جلاله ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ فإضافة إلى كفرهم فإنهم أيضاً يخرجون الرسول صلى الله عليه وسلم وإياكم من دياركم وأرضكم التي هي مكة، بطراً وتكبراً واستعلاء، بسبب ﴿ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ لأنكم آمنتم بالله تعالى، موحدين له عَزَّ وجل، ولم تشركوا به شيئاً.

ثم يذكر تبارك وتعالى شرطاً، وجوابه متقدم ﴿ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِي ﴾ فإن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل الله ربكم، إخلاصاً وابتغاء رضوان ربكم، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. فالجواب المتقدم هو: فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ فتخصونهم بالمودة التي

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٨)

تفضي إلى معرفتهم بحالكم وبأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يساعدهم ويمكنهم من تحصيل مبتغاهم. في حين أن ربكم عالم بكم ﴿ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ ﴾ فإن ربكم أعلم بحقيقة مودتكم لهم، سواء أظهرتموها بألسنتكم، في أقوالكم، أو أخفيتموها في صدوركم. بما يفيد المبالغة في علم الله تعالى لشأنكم فيما تخفونه في صدوركم، أو تعلنونه بأقوالكم، أو بأفعالكم. فإنه لا يخفى على ربكم شيء منكم أبداً. بما يفيد أن عليكم مراقبة الله تعالى في شأنكم مع هؤلاء الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واخرجوكم من دياركم.

فقد أظهر الله تعالى للمؤمنين في تدرج وتسلسل بياني ما أوقفهم به على أن هؤلاء الكفرة من المشركين لا يستحقون شيئاً من المودة منكم لهم، حتى ولو كانت هناك صلة قرابة، فإنهم أعداء لربكم ولكم، وقد بالغوا في عداوتهم حتى أخرجوا رسولكم صلى الله عليه وسلم وأخرجوكم من مكة. وبالتالي فإن جميع المعطيات والدلائل تمنع منكم الإسرار لهم بالمودة. فاحذروا من ربكم سبحانه وتعالى، فإن علم ربكم بكم يبلغ ما ظهر منكم وما تتخفون به بينكم، وما خفي في الصدور. فجملة ﴿ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ ﴾ تُظهر وتُبين أنه الأعلم ولا غيره أعلم منه جَلَّ جلاله. وقد تصدرت بضمير المتكلم ﴿ وَأَنَا۠ ﴾ الذي يعطي دلالة التعظيم والتفخيم، ثم العلم الرباني الذي ورد بأسلوب المبالغة ﴿ أَعۡلَمُ ﴾ فليس هناك أعلم منه بكم، وسواء ﴿ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ ﴾ في صدوركم من مودتهم، أو ﴿ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ ﴾ فالباطن والظاهر في علم الله تعالى مستويان. وهو غاية النهي والتحذير، بما يُوجب قطع الصلة المبنية على المودة. وبالرغم من كل ذلك التحذير والنهي إلا أن الخطاب ابتدأ من الله تعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فلم يجعل تبارك وتعالى موقفاً من أحدهم أو بعضهم ينسف ويلغي به إيمانهم. مما يدل على عدله وحكمته جَلَّ في علاه، وأن الخطأ لا يزول به الأصل، الذي هو الإيمان.

مما يفيد ويعلم العباد أهمية التوازن في التعامل، وفي الحكم على الغير، وأن الخطأ لا يعني إسقاط صاحبه من دينه، أو ما عُرف به وعنه. بل يجب الحكمة، واحتواء الغير بالمعالجة والبيان الصحيح والعادل والصادق، وتصحيح الأفهام بالمواعظ التي يحصل بها الحق والخير. وهو المنهج النبوي الكريم، عندما توقفت ناقته القصواء، ولم تتحرك، فقال عليه الصلاة والسلام عنها (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُق)[1] أي: ما امتنعت القصواء، وليس ذلك من عادة أخلاقها. فحكم صلى الله عليه وسلم على ناقته بما اعتاد منها، وليس بما طَرَأ عليها. مما يعلم العدل في الحكم، وعدم استصحاب الحكم الخاص على العام. بل قصر الحكم على موضعه.

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٧٣١)

ثم يعظ الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ومن يُسر منكم إلى المشركين بالمودة ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فقد حاد وجار عن قصد السبيل التي جعلها الله تعالى طريقاً إلى الجنة. وقد ذكر أهل التفسير أن هذه الآيات من أول هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه. وكان قد كَتَبَ إلى قريش بمكة، يُطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم[١] وبالرغم من ذلك فقد جاء التوجيه عاماً، ليشمل المسلمين أجمعين، من غير تخصيص. وهذا من أخلاق الإسلام وهديه. وقد جاء في الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم وجه سؤالاً لحاطب رضي الله عنه. (يا حاطب! ما هذا؟) قال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً مُلصقاً في قريش. ولم يكن لي فيهم قرابة. فأحببت أن إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما أنه قد صَدَقَكم) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً. قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[٢] فقد كان في جواب حاطب رضي الله عنه الصدق، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له (أما أنه قد صَدَقَكم) وفيه من الفوائد: أن ينظر في الحكم العام على الأشخاص، من خلال جميع معطياتهم، لا من خلال آخر زلاتهم. وهذا لا يعني الغاء الحكم الشرعي من خلال النظرة العامة. ولكن أن لا تُسقط محاسن الفرد بالزلة الواحدة، فَيُذَم ويُرمَى بآخر ما صدر عنه من زلة أو هفوة[٣] وفيه عظمة أسلوب القرآن الكريم في المعالجة المتسلسلة في التوجيه والبيان. وتعميم المعالجة، لتكون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ليكون توجيهاً عماً للمسلمين أجمعين، على مدار تعاقب السنين والأعوام والأجيال.

ثم أخبر تبارك وتعالى بعداوة الكفار، وتجلية ما هم عليه من دقائق العداوة، وما يتمنون الحصول عليه من المؤمنين. فقال تبارك وتعالى ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ إن يظفروا بكم تنكشف لكم حقائقهم، وتظهر لكم قوة عداوتهم التي يُبطنونها لكم. فإنهم ينتظرون فقط ذلك الوقت الذي يثقفونكم فيه. مما يفيد قوة مكرهم، التي تتطلب أن تتأهبوا لهم، لا أن تُوادُّهم. فإنهم ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ ﴾ إن يتمكنوا منكم، بالظفر والسيطرة، يظهر لكم الوجه المغاير والمضاد لموالاتكم لهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٩/٢٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٢٧٤)

(٣) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٤٧٠)

﴿ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ ﴾ فتظهر لكم شدة عداوتهم. فإنهم إذا تمكنوا منكم برزت وظهرت شدة وقوة عداوتهم التي يحملونها لكم، فعليكم أن تظفروا بهم، وأن تبادروهم بالتمكن منهم، لا أن توالوهم وتوادهم فيتمكنوا منكم. وهذا كشف من العليم الخبير عَزَّ وجل لبواطنهم، وما يسرونه ويضمرونه للمؤمنين عموماً. فأخبر الله تعالى المؤمنين بحقائقهم، وكذلك بمنهجية التعامل معهم. مما يُعَلِّم المؤمن منهج التعامل مع الأعوان في جميع الأحوال المختلفة.

ثم يتدرج الكشف عن حقائق الكفرة المشركين من الله العليم الخبير، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ فإن من حقدهم عليكم، وبغضهم وكرههم لكم، فإنهم إن تمكنوا منكم سيتوسعون فيما يتمكنون به منكم، سواء كان بالأيدي أو بالألسنة، بل ورد البيان الكريم بدلالة البسط ﴿ وَيَبۡسُطُوٓاْ ﴾ وهو التوسع والسعة فيما يردون تحقيقه فيكم ﴿ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ بالبطش والتنكيل وكذلك بأقوالهم ﴿ وَأَلۡسِنَتَهُم ﴾ أي: بألفاظهم وأقوالهم السيئة ﴿ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ أي: بكل ما تكرهون من ألوان وأنواع ما تستاؤون منه، من القول والفعل. بل ﴿ وَوَدُّواْ ﴾ أي: ويطمعوا بالتمني والترجي ﴿ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ لو يحصل منكم الردة عن الإسلام، وتكونون مثلهم في الكفر. مما يبين أن من أمنيات الكفار عموماً: لو يكفر المؤمنون، وأن يتمكنوا من تحقيق ذلك فيهم، وأن يشبعوهم بطشاً وتعذيباً، مع السوء من القول. مما يفيد التحذير، وأنه يجب التعامل معهم في الحدود التي لا تمكنهم من الظفر بالمسلمين. وأن عداوتهم متحققة للمؤمنين حتى وإن أظهروا أضدادها. مما يوجب الحذر منهم عند التعامل معهم. وألا تتخذونهم أولياء لكم، وتسارُّوهم بأخباركم. فهذه منهجية مستمرة للمؤمنين، كقاعدة دائمة. وهذا فضل من الله تعالى في إنزال القرآن مفرقاً بحسب الحوادث وحاجات المؤمنين، ليعالج قضاياهم بالتعليم والتوجيه، حتى جعل منهم أمة قوية بمنهج الإسلام القويم.

ثم يخبر الله تعالى ويجلي للمؤمنين ما يصححون به مفاهيمهم وحُسبانهم عن هؤلاء المشركين الذين تربطهم بهم صلة القرابة، والمصالح، لأنهم حديث عهد بمفارقتهم. فقال تعالى ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ لن تنتفعوا بتلك القرابات التي بينكم ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ ﴾ وهم الأقارب من جهة الأم والأب. فلن تنتفعوا بها طالما اختلفوا عنكم في الدين. ثم خص الأولاد بالرغم من دخولهم في ذوي الأرحام ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾ لخصوصية وميزة المحبة، ففي إفراد الأولاد ما يبين قوة المبالغة في المفارقة ﴿ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾ الذين لم يدخلوا في الإسلام ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾ فهو نفي قطعي من أن تحصل لكم منهم أي نوع من أنواع المنفعة. لأنهم أعداء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وفي هذا تعليم للمؤمنين، من أن المفارقة الدينية تنفي استواء المنفعة، وتحققها.

مما يُوجب الحذر من ذلك. مما يبين حاجة المؤمنين إلى كثرة التوجيه والبيان، بما يدل على الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقاً، حتى تحصل به المعالجة لما كان يطرأ من الأحداث في حياة المؤمنين. فيوجههم تبارك وتعالى بحسب مقتضيات الحاجة.

ثم أعادهم الله تعالى إلى يوم الحساب، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ ففي يوم القيامة يفصل الله تعالى بينكم وبينهم بالتفريق والإبعاد، لأن الجزاء بحسب العمل، لا بحسب القرابات، بما يفيد ستنفصلون عن بعضكم البعض. ولن يصبح للقرابة والصلة ارتباط بين المؤمن والكافر. فإن أهل طاعته سبحانه وتعالى يدخلون الجنة، وأهل معصيته يدخلون النار.

ثم يخبر الله تعالى بكمال علمه بما كان من عباده، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فربكم بصير بما يكون من أعمالكم التي تقومون بها. والبصير هو الذي يرى كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وأعمالهم، وإيمانهم، وكفرهم، وحاجاتهم، فيعطي كل أحد بما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير من مخالفة شريعة الله تعالى، وتحضيض على الطاعة، لأن الله تعالى يعلم ما يكون منكم فيثيبكم، مهما كان الشأن قليلاً أو كثيراً. وهو تهديد لمن يخوضون في الباطل، ومن يوادون الكفرة، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة، ولا أدنى من ذلك، بل إنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً. مما يقوي عزيمة المؤمنين أمام الباطل، وأمام شطحات النفوس، وأمام مكائد الأعداء. فيعلمون أنه لا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من أعمالهم، وأعمال غيرهم ونواياهم. َفيقْوَى بذلك التوكل عند المؤمن، ثم تَعلُو وتقوى الشجاعة القلبية في كل شأن، سواء تجاه مواجهة الباطل بجميع أنواعه وأحواله. أو في بذل المعروف والإحسان والإقدام عليه. فهي قوة من كل وجه للمؤمنين، وتحذير لغيرهم من ربهم سبحانه وتعالى.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

ثم ينقل البيان من الله تعالى إلى شأن نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أجل أن يتأسوا به. فيقول جَلَّ شأنه لعباده ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ إن لكم في رسول ربكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام قدوة صالحة تتأسون وتقتدون به وبالمؤمنين الذين كانوا معه. وقد تصدر البيان الكريم في هذه الآية الجليلة بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ قَدْ ﴾ الذي يفيد تأكيد وتحقيق مجال القدوة والأسوة في إبراهيم عليه الصلاة والسلام إن تأملتم واقتديتم وتمثلتم بها أيها الْمُخَاطَبون. وأفاد حرف ﴿ كَانَتْ ﴾ السبق والْقُدْمَة والأسوة. ثم تلاه تخصيص الْمُخَاطَبين المعنيين به ﴿ لَكُمْ ﴾ أنتم أيها المؤمنون. ليفيد التحضيض بالتخصيص لهم، بأنكم أنتم المعنيون. وكل هذا تشويق لبيان أنه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. ثم تلى ذلك إظهار مركز ولب ما يجب أن يأخذوا به ﴿ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قدوة متصفة بالْحُسن الذي يلزم الحرص على أن تتأسون به، فلا يفوت عليكم الاقتداء به.

ثم بعد هذه المقدمة ذات التشويق، التي تحث وتُحرض النفس على معرفة من هو هذا صاحب هذه القدوة التي يأمر الله تعالى المؤمنين بالاقتداء بها. ثم ذَكَرَه الله تعالى، وذكر معه من اتبعه من المؤمنين. فقال تعالى ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ إنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأتباعه الذين آمنوا معه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: أتباعه الذين آمنوا معه(١) وفي هذا عظيم المدح والثناء على رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى من معه من المؤمنين حتى أصبح شأنهم قدوة لغيرهم.

ثم انتقل البيان في تدرج مملوء بالتشويق إلى المرتكز الذي يتأسى به المؤمنون في معالجة الموقف والحالة التي هم عليها مع ذوي القرابة من المشركين. فقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقد بدأوا قومهم بالبراءة، التي تعني التخلي والتباعد عنهم في الموالاة ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ ﴾ والبراءة تعني التنزه من الشيء، وإزالة علاقة الارتباط معه، وقطع أسباب ما بين الطرفين. وهي تعني المفارقة والتباين، بما ينفي التواد ولولاية. ثم عطفوا على تلك البراءة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٢/٤)

الشخصية البراءة من معبوداتهم ﴿ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وكذلك نتبرأ من جميع ما عبدتم من غير الله عَزَّ وجل. وفي وصفها بأنها ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ما يشير وينبه على ضعفها وعجزها، بأنكم تعبدون من دون الله القوي العزيز أصناماً عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها، فكيف تدفعه عن غيرها. فالذي من دون الله عَزَّ وجل قد تحقق فيه كمال القصور والضعف والعجز، فانتفت منه القدرة على النفع ولو بشيء يسير، وانتفت منه كذلك القدرة على الإضرار ولو بشيء قليل ويسير. وفي هذا انكار على المشركين الذين اتخذوا معبوداً من دون الله تعالى.

ثم بعد ذلك قال المؤمنون من قوم إبراهيم لقومهم ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: أظهرنا وأعلنا إنكارنا لكم، وتبايننا منكم ومما تعبدون ﴿ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ ﴾ ومن الآن قد بدأت بيننا وبينكم بسبب كفركم ﴿ ٱلۡعَدَٰوَةُ ﴾ وهو التنافر والتضاد، وما تحمله من جميع الدلالات المنافية للتواد والتراحم والموالاة. وكذلك بدأت منا لكم ﴿ وَٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾ التي تعني نفرة قلوبنا منكم، فلا تحمل لكم إلا الكراهة، ومحبة الشر لكم، وكره الخير لكم، لأنهم أعداء لله عَزَّ وجل. مما يعلم المؤمن كيف يكون حاله مع غيره من الكافرين، حتى ولو كانوا من ذويه وقرابته. فيكون المؤمن صريحاً في تعامله. مما يبين صفاء ووضوح الإسلام. بل أكدوا ذلك بقولهم ﴿ أَبَدًا ﴾ بما يفيد المبالغة في تضاد وتنافي تلك العلاقة إلى أقصاها. ثم استثنوا ما يحث قومهم ويحفزهم للتأمل والتفكر والدخول في دين الله تعالى، فقال الله تعالى عن قولهم ﴿ حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ حتى تصدقوا بالله تعالى، وتُفردونه عَزَّ وجل وحده لا شريك له بالعبادة، وفق دين الله تعالى. مما يبين أن أول مبادئ الدين هو التوحيد، ونفي الشرك، ثم الامتثال بالطاعة في العبادة.

ثم استثنى سبحانه وتعالى من الاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام في شأن استغفاره لأبيه الكافر. فقال تعالى ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ قال المفسرون: والمعنى: تأسوا بإبراهيم إلا في استغفاره لأبيه فلا تتأسَّوا به في ذلك[١] ﴿ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ وما أدفع عنك عذاب الله إن أشركت به. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فإنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه[٢] أي: تبرئ إبراهيم عليه السلام من أبيه عندما أصر على شركه، ولم يُوحد الله تعالى، ويدخل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٧٢)

في دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. كما ورد في سورة التوبة، فقال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ فإن استغفار إبراهيم لأبيه لعلة الوعد الذي حصل منه لأبيه، فلما تبين له أن أباه باق على كفره، ومصر عليه، تبرأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أبيه، لأنه أصبح بكفره عدواً لله تعالى؛ فلا يستحق الاستغفار، حتى ولو كان هذا الاستغفار من ولده، الذي هو خليل الله تعالى ونبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أن وعد إبراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ فلما تبين الأمر واتضح له تبرأ من أبيه، مما يدل على سرعة التجاوب والطاعة والانقياد لله تعالى، فبمجرد علمه بحال أبيه من الكفر تبرأ منه. فجاء الثناء العظيم، والتزكية الرفيعة من الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان موقناً، كثير الدعاء، ومُتصفاً بالحلم، وبما يفيد المدح والثناء من الله تعالى عليه.

ثم ذكر تبارك وتعالى دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو قوله ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فتأسوا بإبراهيم في دعائه ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ ربنا عليك اعتمدنا وفوضنا الأمر إليك، فاجعلنا من المفلحين، لأن التفويض هو الاعتماد في تحقيق المرغوب والمحبوب، ودفع المكروه. فتولى تدبيرنا من عندك يا ربنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ ورجعنا وسلمنا أمورنا إليك، بطاعتنا وبجميع ما يقربنا إليك. لأن تدبير الله تعالى للمؤمن خير له من تدبيره لنفسه، لأن الله تعالى عالم بعواقب الأمور كلها. بما يفيد التفويض إلى الله تعالى، والرضا بتدبيره. ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فإنا مؤمنون بأن مرجعنا إليك. بما يفيد أننا نقرر يا ربنا بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء. فنعمل ونجتهد بما يقربنا إليك يا ربنا، فاجعلنا بالقرب منك في جنات النعيم.

فَيُعَلِّم هذا الدعاء العظيم، ومعانيه ودلالاته أن يسأل المؤمن ربه عَزَّ وجل أن يرزقه حُسن التوكل على الله تعالى، والإنابة إليه عَزَّ وجل، والإيمان بالبعث والنشور، من خلال الاعتراف بالإنابة إليه جَلَّ في علاه ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيعتقد ذلك بقلبه، ويُعلنه قولاً، ويحققه عملاً. وقد تم افتتاح هذا الدعاء بقوله ﴿ رَّبَّنَا ﴾ الذي يفيد الالتجاء والتضرع والمسكنة، وإعلان الافتقار والحاجة. والتي تكررت ثلاث مرات على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ثم يستمر البيان في الدعاء، فيقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيا ربنا لا تجعلنا مكاناً ومحلاً لفتنة القوم الكافرين، فيتمكنوا منا، فيقولون نحن على حق، فيزدادوا بذلك كفراً، بسبب افتتانهم بما حصل لنا منهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى، وبمثله ورد عن ابن جرير رحمه الله تعالى، كما ورد في سورة يونس: أي لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلِّطُوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل، فَيُفتَنوا بذلك[١] ثم سؤال المغفرة من الله تعالى ﴿ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ ﴾ وامحو ذنوبنا، واسترها، ولا تعاقبنا عليها يا ﴿ رَبَّنَآ ﴾ وقد افتتح الدعاء بالنداء والتضرع ﴿ رَبَّنَآ ﴾ وهي المرة الثانية، ثم تكررت في ختام الدعاء ﴿ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ ﴾ بما يفيد قوة التضرع والابتهال والتذلل لله تعالى بهذا الاعتراف بالربوبية، والافتقار إلى الله تعالى. مما يبين أهميتها في الدعاء، لما حوته من معاني الربوبية، والافتقار والابتهال والتضرع.

ثم اختتم الدعاء بتمجيد الله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إنك أنت وحدك يا الله الذي له العزة وله الحكمة الكاملة والمطلقة، وليس ذلك لغيرك. فأنت الذي له العزة بأكملها، والحكيم في تدبيره وقضائه، فهذا طلبنا من الدعاء والحكم لك، والعزة لك، وأن ما تقضي به هو الحق. فهو أدب عظيم من العبد مع ربه الرحمن الرحيم، صاحب العزة والحكمة، الحكيم العزيز. فأنت يا ربنا المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وكذلك أنت المتصف بكمال الحكمة ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. كما تضمن هذا التمجيد: قصر تحقيق مطلبهم على الله سبحانه وتعالى، كما قصروا صفة العزة والحكمة عليه وحده لا شريك له ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ إنك أنت يا ربنا، لا غيرك العزيز الحكيم. بل كرروا الحصر بالتأكيد، الأول ﴿ إِنَّكَ ﴾ ثم التعقيب عليه بقولهم ﴿ أَنتَ ﴾ المتصف بالعزة والحكمة. مما يعلم المؤمن كيف يتأدب مع ربه في الخطاب والسؤال والدعاء، فيمجد ربه عَزَّ وجل بما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى عظمة هذه الأسوة التي تمثلت في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومن معه. فقال تعالى ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٤٤)

ﵟ ٱلۡحَمِيدُ ﵞ إن لكم في رسول ربكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام قدوة صالحة تتأسون وتقتدون به وبالمؤمنين الذين كانوا معه. وقد تصدر البيان الكريم في هذه الآية بحرف التحقيق والتأكيد الذي سبقه لام القسم ﵟ لَقَدۡ ﵞ الذي يفيد تحقق القدوة والأسوة وتأكُدها إن تأملتم وتأسيتم واقتديتم بهم. وأفاد حرف ﵟ كَانَ ﵞ السبق والْقُدْمَةَ في ذلك، ثم تلاه تخصيص الْمُخَاطَبين المعنيين به ﵟ لَكُمۡ ﵞ ليفيد التحضيض بالتخصيص لهم، بأنكم أنتم المعنيون. ثم تلى ذلك مركز ولب ما يجب أن يأخذوا به ﵟ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﵞ قدوة متصفة بالْحُسن الذي يلزم الحرص على أن تتأسون به. ﵟ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ ﵞ لمن كان منكم يأمل ويرجوا ثواب الله تعالى، وجزاءه الذي أعده للمتقين. وقد عطف الله تعالى الإيمان باليوم الآخر على من كان يرجوا الله سبحانه وتعالى ﵟ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ﵞ باعتبارهما قرينان. فلا بد مع الأيمان بالله تعالى أن يؤمن المؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم ذكر تبارك وتعالى حال من أعرض عن الله تعالى، وعن دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﵟ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﵞ فمن تولى بالإعراض والاستكبار والإدبار عن دين ربه إلى المشركين ﵟ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﵞ فإن ربك هو لا غيره الغني عن إيمان من كفر، وعن طاعة من تولى وأدبر، وعن جميع خلقه. فلا حاجة له عَزَّ وجل فيهم، بل هم الفقراء إليه جَلَّ في علاه. وقد قصر الله تبارك وتعالى كمال الغنى عليه عَزَّ وجل ﵟ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ﵞ بما ينفي أن يكون هناك أحد يماثله جَلَّ جلاله، أو أن أحداً مستغني عنه تبارك وتعالى، أو يستطيع أن يستغني عن الله جَلَّ جلاله. وبما يثبت أن كل أحد فقير إليه عَزَّ وجل في كل شيء، وفي كل حال هو عليه. فهو الغني وهو الْمُغْنِي جَلَّ في علاه.

وأنه سبحانه وتعالى هو ﵟ ٱلۡحَمِيدُ ﵞ أي: المحمود على غناه، وعلى عطائه، وكرمه. والمحمود على كل حال، سواء حَمِد العبد ربه جَلَّ شأنه، أو لم يحمده، فهو المستحق للحمد من عباده، لتفضله بالإنعام عليهم بالنعم التي لا تحصى ولا تُعد. فالحمد لله تعالى على ما أنعم به مِن نِعم لا تُعَد، وإحسان منه لا يُحد. وفي اقتران الحميد مع الغني ﵟ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﵞ ما يفيد أنه هو المحمود على غناه، فإن من كمال صفات الله تعالى أنه جَمَعَ مع غناه صفة الثناء من الحمد على كرمه وجوده. فمع غناه عن خلقه سبحانه وتعالى إلا أنه يوالي في عطائه الذي لا ينقطع، فاستوجب من عباده حمده وشكره والثناء عليه؛ لِمَا أولاهم من الإنعام العظيم.

وقد أفاد ﴿ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ من حيث السياق أنه عَزَّ وجل هو المتفرد سبحانه وتعالى بكمال الغنى، وبصفة الحمد والثناء على كمال غناه وكرمه وجوده من خزائنه على خلقه. وقد أفادت دلالتها عظيم غناه، وكثرة حامديه في السماوات والأرض، وأنه محمود عند خلقه تبارك وتعالى بما أعطاهم وبسط عليهم من فيض نعمه سبحانه وتعالى، وهو المحمود بكل لسان وعلى كل حال، فلا يُحْمَدُ في السراء والضراء إلا هو عَزَّ وجل، فهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وما يقدره ويمضيه، وما يمنعه سبحانه وتعالى. وعلى ما شرع من الدين. فهو عظيم الشأن، كثير الإحسان على عباده، بما يفيضه عليهم من الخيرات التي لا حدود لها. فنحمد الله عَزَّ وجل.

وأعطى السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو الغني الحميد لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان بنون التوكيد ﴿ فَإِنَّ ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ ثم تم الحصر باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ فإن الله تعالى هو فقط لا غيره ﴿ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المستغني عن غيره، وغيره فقير إليه سبحانه وتعالى، وما يتبع ذلك من افتقار الخلق إليه، وما يلزمهم من كمال الطاعة والامتثال. فقد أفادت جملة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ قصر كمال الغنى وكمال من يستحق الحمد عليه عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات، فهو المتفرد بذلك. فكيف يذهل المخلوق عن هذا؟ فلا يخاف ويهاب ربه، وهو الذي يغني ويفقر، ويعطي، ويمنع. مما يفيد جهل من يكابر ويتولى ويُدْبِر عن دين الله تعالى، بل وعظيم كفر وجهل من عبد غير الله تعالى، وسأل وتوسل غير ربه الغني الْمُغْنِي. وفي هذا كمال الإنذار للعباد بما هو حق لله تعالى. وكذلك فيه ترغيب للمؤمنين في الاعتماد عليه عَزَّ وجل، فإن ربكم هو الذي يغنيكم عن غيركم ممن لهم الأموال والسيادة. فلن يضيع لكم استغناءكم بربكم عمن سواه. وسيجزيكم به خير الجزاء.

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وبعد أن نهى تبارك وتعالى المؤمنين عن مودة وموالاة المشركين، وأمرهم بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين في إعلان عداوتهم للكفار، ينتقل البيان إلى الأمل في أن يسلم أقاربهم، فتتحول تلك العداوة إلى مودة بموجب الإيمان، وبموجب ما يقتضي من طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي تحصل الموالاة والمودة بينكم على أصول صحيحة. فقال عَزَّ وجل ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ

عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عسى الله ربكم أن يجعل مودة تحصل بينكم أيها المؤمنون، وبين هؤلاء المشركين الذين عاديتموهم، فتجتمع بينكم صلة القرابة والموالاة بإسلامهم، فإن ربكم على كل شيء قدير. بأن يجعلهم يُسلمون. وقد أسلم كثير منهم بعد فتح مكة، وحَسُن إسلامهم، وجاهدوا، ونشأت مودة بينهم كما أخبر الله تعالى بذلك. فهو سبحانه وتعالى العليم بما سيكون قبل أن يكون.

وقد بدأت الآية الكريمة بفعل المقاربة والرجاء ﴿ عَسَى ﴾ بما يستثير رجاء المؤمنين، وتغليب الأمل في إسلام أقاربهم، لتحصل المودة على أصول الدين. وقد جعل الله تعالى هذا الأمل مُقيداً ومرتبطاً بإرادته عَزَّ وجل. إذ قال تبارك وتعالى ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ ﴾ فجعل ما أخبرهم به منسوب إليه سبحانه وتعالى، بما يبين أن مشيئة الله تعالى تريد تحقيق الخير لهم، بما يحبونه لأقاربهم من الخير. وهي منحة كريمة من الله تعالى، ولطفاً بالمؤمنين الذين تحملوا الهجرة، ومقاطعة وعداوة أقاربهم طاعة لله تعالى. مما يبين كرم الله تعالى، ولطفه، وأنه على كل شيء قدير.

ومن دقائق الأسلوب الكريم أن زاد الاطماع لهم بأن يُدخل اللهُ تعالى أقاربهم في الإسلام بتحقيق المودة على أصولها الدينية. حيث قال عَزَّ وجل ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ فكون هذه المودة لا يمكن أن تتحقق إلا بإسلامهم، فإن هذا البيان الكريم قد أعطى الدلالة على دخولهم في الإسلام مستقبلاً. وحينها تتكافل المودة وتتعاضد بالدين، وتتعزز مع صلة القرابة بينهم على الوجه الصحيح. ثم ازداد باب الأمل بقدرته على تحقيق ذلك بقوله جَلَّ شأنه ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ فإن ربكم قادر على تحقيق ذلك، وتغيير الأحوال. ثم يتدرج إلى بيان سعة رحمته عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيغفر لمن دخل في الإسلام، ويمحو ما سلف من ذنوبهم، وعداوتهم، ومكرهم، ونواياهم السيئة، لأن ربكم متصف بالمغفرة والرحمة ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها. أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الإيمان. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، حتى يشد بعضه بعضاً.

وبعد أن أظهر الله تعالى وأوضح للمؤمنين ما يجب عليهم تجاه أقاربهم المشركين من عدم المودة والموالاة لهم، وما مَنَّاهم به من أن عسى أن يدخلوا في الإسلام، فتتحقق لهم المودة المنضبطة بالدين، ينتقل بهم بعد ذلك إلى الحكم فيما يخص من لم يحمل السلاح من الأقارب الذين استمروا على شركهم. فحدد لهم سبحانه وتعالى منهج العلاقة بهم. فقال تعالى ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أظهرت الآية الكريمة أن المشركين من أقاربهم منقسمون إلى فريقين. فريق حمل السلاح، وقاتل المؤمنين ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم. فهؤلاء هم المخصوصون بالنهي. واستثنى منهم المسالمون من أقاربهم من أهل الشرك ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لا يمنعكم ربكم ﴿ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ الذين لم يحاربوكم بسبب الدين. وهذا هو الوصف الأول: ﴿ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ لم يحاربوكم بسبب دينكم الذي هو الإسلام. والوصف الثاني: ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ ولم يسعوا في إخراجكم من دياركم، للهجرة إلى المدينة، ولمن هاجر إلى الحبشة. فهؤلاء لا ينهاكم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أي: تصلونهم بما يستحقون من أنواع الخير ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: بأن تنصفونهم في التعامل، وتعطونهم الحق والعدل منكم، لأن الله تعالى يحب من اتصف بالعدل مع غيره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ إن الله تعالى يحب من يعدل مع غيره، وبالتالي لا يحب الظلم، حتى مع الكافر. مما يدل على عظمة منهج دين الله تعالى. وأنه قائم على العدل.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عُني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم. إن الله عَزَّ وجل عمم بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. لأن بِر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينهم قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينهم،

ولا نسب، غير محرم، ولا منهي عنه[١] وفي هذا التخصيص بالاستثناء في التعامل مع الكفار الذين لم يحملوا السلاح على المؤمنين، ولم يخرجونهم من أراضيهم أن يتعاملوا معهم المعاملة القائمة على العدل، وعدم الظلم، وإن كانت هناك قرابة فإنها تزيد بالصلة على وجه أداء الحقوق للقرابة. وفي هذا ضبط للعلاقة مع التفريق بين نوعيها. فهناك من الكفار من يحمل السلاح والعداء، وهناك المسالم. فللمسالم حق التعامل معه بالعدل، وعدم الظلم له. مما يعطي بذلك قاعدة في التعامل أهل الملل الأخرى.

ثم يؤكد تبارك وتعالى هذا الحكم بالتأكيد والحصر، لإيضاح الفهم. فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إنما ينهاكم ربكم عن الذين قاتلوكم بسبب محاربتهم لدينكم الإسلام. وسعوا في إخراجكم من دياركم، وأعانوا وساعدوا على إخراجكم. فهي ثلاث حالات من الأسباب.

وقد حصر النهي منه سبحانه وتعالى بتخصيص وتحديد وصف المنهي عنه بحرف الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي أفادت أن النهي محصور فيما نهاكم الله تعالى عنهم من الذين اتصفوا بثلاث صفات: الأولى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وهم الذين قاتلوكم بسبب محاربتهم لدينكم الإسلام. والصفة الثانية: ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ وسعوا في إخراجكم من دياركم، فمنكم من هاجر ابتداء إلى الحبشة، ومنكم من هاجر إلى المدينة. والصفة الثالثة: ﴿ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ وأعانوا وساعدوا على إخراجكم. فمن دقة البيان أن شملت من باشر الإخراج ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ وكذلك من أعان وساعد على الإخراج ﴿ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ وهذه دقة في البيان بالتعريف الدقيق. مما يعلم المؤمن دقة تحرير البيان، وضبط الكلام، والأحكام بأسلوب يستوفي المراد، ويمنع تداخل الاحتمالات.

ثم عين النهي تبارك وتعالى بعد بيان الحصر ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ فهؤلاء الموصوفون بهذه المواصفات هم الذين ينهاكم ربكم أن تولوهم وتتعاملوا معهم بالمودة. ثم بعد هذا البيان الجلي الواضح لمواصفات المنهي عن موالاتهم، يحذر تبارك وتعالى من مناصرة ومودة أولئك الموصوفون بتلك المواصفات. فقال تعالى ناهياً ومحذراً ﴿ وَمَن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٥٧٤)

يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فمن يتولاهم بأي نوع من الموالاة، فيتخذهم أحباباً، وأنصاراً، ونحو ذلك ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فإن هؤلاء هم الذين أوقعوا أنفسهم في الظلم، بأن ظلموا دينهم، ولم ينصروه، وظلموا رسولهم فخذلوه، بموالاتهم لأعدائه. وظلموا أنفسهم بأن وضعوا ولا يتهم في غير موضعها الصحيح، بل وضعوها في الموضع الذي خالفوا الله تعالى فيه. فاستوفوا الظلم من كل وجه. مما يبين شدة النهي عن موالاة من حارب المسلمين في دينهم، وأخرج المؤمنين من ديارهم. فموالاتهم خيانة، قد التحقت بالظلم. وفي هذا ضبط للعلاقات مع الكافرين، بأنها مباحة إلا مع الذين حاربوا دين الله تعالى، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم، ومعهم الذين ظاهروهم بالعون والمساعدة. فهي قاعدة فقهية حكيمة، تزيل اللبس، وتبين أن هذا الدين هو دين الكمال من كل وجه، حتى في تعامله مع غير المسلمين. فنحمد الله تعالى على نعمة الإسلام، ونعمة العلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يعالج تبارك وتعالى شأن المؤمنات اللاتي هاجرن من ديارهن إلى المدينة، التي هي دار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يا من صدقوا بالله ربهم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ودانوا بدينه إذا أتتكم المؤمنات مهاجرات إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فتثبتوا وتأكدوا من صحة هجرتهن أنه إيماناً وهروباً من الكفر. فإن تبين لكم صدقهن فلا تردوهن إلى الكفار، فلا يحل لهن الكفار أزواجاً لهن، ولا يحل للكفار أن يتزوجوا المؤمنات.

وقد افتتح الله تبارك وتعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] فهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

وبعد النداء لهم، ومخاطبتهم بصفة الإيمان يرشدهم تبارك وتعالى إلى أهمية التثبت من صحة وصدق إيمانهن. فيقول تبارك وتعالى للمؤمنين ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ إذ جاءكم المؤمنات مهاجرات من ديارهن إلى دار الهجرة بالمدينة، فتثبتوا من صدق ما جاؤوا إليه، من أنه بسبب إيمانهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وليس لأغراض أخرى غير الإسلام. بما يكشف عن حقيقة مجيئهن من أنه ليس لأمر آخر، كالتجسس، ومعرفة أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وبما يزيل الريبة والشك. مما يبين أهمية الاستيثاق من الأمر والشأن، وأنه أمر مأمور به شرعاً، لدفع الشر، وتحصيل الأمن. كما يبين قوة إدارة المنهج الإسلامي لحياة المسلمين، وتأصيل إجراءات تعاملاتهم مع الغير، وفق معايير ذات أهمية بالغة.

وهي قاعدة تنظيمية، قد وردت بصيغة الجمع ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ بما يدل على كثرتهن، وعلى تعاقبهن. وبما يبين أن كثير من النساء قد أدركن الحق، وبلغ بهن الإيمان أن يتركن أهليهن من أجل الإيمان، محبة في الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الحق واضح لهن، وأن الإسلام وتعاليمه وغاياته قد انتشرت

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤)

في البيوت. ومن دقائق البيان الكريم أن الله سبحانه وتعالى سماهن مؤمنات على الأصل ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فالأصل أنهن مؤمنات، ويكون التعامل معهن على هذا الأصل. وإنما التثبت هو للتأكد. وأن الامتحان هو للاختبار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: تثبتوا منهن. وقد ورد في امتحانهن ثلاثة أساليب: أحدها: أن يمتحنوهن بشهادة أن لا إله إلا الله. وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه كان يستحلف المرأة بالله: ما خرجت من بُغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. روي عن ابن عباس أيضاً[١] وعن قتادة رحمه الله تعالى: كانت محنتهن أن يُستحلفن بالله: ما أخرجكن النشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحِرصٌ عليه. فإذا قُلن ذلك قُبِل ذلك منهن[٢] والثالث: أنه كان يمتحنهن بقوله عَزَّ وجل ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط قالت: قد بايعتك. هذا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[٣] فهي مجموعة من الإجراءات التي تفصح بها المرأة المهاجرة عن نيتها الحقيقية فيما هاجرت إليه، بأنه طاعة وحباً لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وليس لأمر وغرض آخر.

ولما أن هذا هو الظاهر الذي كلف الله تعالى به المؤمنين أن يعملوه مع المؤمنات المهاجرات، وأنهم لا يستطيعون الوصول إلى سرائرهن، عالج ذلك سبحانه وتعالى بأن أوكل سرائرهن إليه تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فإن الله وحده لا شريك له هو الأعلم بحقائق إيمانهن، وإنما يكفيكم أنتم العمل الظاهر، وأن تُكلوا بواطنهن إلى ربكم العليم الخبير. مما يعلم المؤمن أن يتعامل مع الاخرين بما يظهر له من ظاهره، وأنه ليس مسؤولاً عن بواطن الناس. إذ لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على تكليف العباد بما يستطيعون من الحقائق، ورفع عنهم ما ليس من قدرتهم. وبما يؤكد أن هذا الدين هو دين الحق، والسماحة، والعلم، والصدق، والتثبت بما يستطيع المؤمن. فنحمد الله تعالى على نعمة الإسلام وتعاليمه العظيمة، التي تُعَلِّم الإنسان كيف يبني منهجه، ومناهج التعامل في أنظمته ولوائحه، وإدارته في بيته، ومع أعوانه في مهنته، ومع أصحابه، وفي جميع دوائر الحياة المختلفة.

ثم بعد اجراء الامتحان لهن، وتوكيل السرائر إلى الله تعالى يرشد اللهُ تعالى المؤمنين إلى الأحكام الشرعية والاجراءات التي يتخذونها. فقال تعالى ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فإذا تبين

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٧/٢٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩/٨)

وظهر لكم أنهن مؤمنات فلا تردونهن إلى الكفار. ثم علل سبحانه وتعالى السبب في عدم إرجاعهن إلى لكفار، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فلا المؤمنات يحللن زوجات للكفار، ولا يحل للكفار أن يتزوجوا المؤمنات، بما يفيد التحريم. فَحَكَمَ سبحانه وتعالى للمؤمنات بما يناسبهن من خصوصية الدين. فإنهن أرفع من أن تبقى إحداهن في عصمة الكافر، وأن قيمتهن وعلو شأنهن قد أصبح بالإسلام عالياً، فلا تجوز له، ولا يجوز لها. وبالتالي تحريم أن تنكح المؤمنة كافراً.

ثم عالج منهج الله تعالى شأن الصداق الذي دفعه الكافر لزوجته عندما كانت في عصمته. فقال تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ فإن من عدل الله تعالى أنه أمر المؤمنين أن يدفعوا إلى الكافر الصداق الذي سبق وأن دفعه مهراً لها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وغير واحد[١] وهذا من عدل الله تعالى، وعدل منهج الإسلام، حتى لا يجتمع عليه خسارة الزوجة، وخسارة المال. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على العدل ومنع الظلم حتى مع الكافر.

ثم عالج سبحانه وتعالى شأن هذه المؤمنة المهاجرة التي فارقت زوجها الكافر، فقال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ فلا حرج عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوا من أردتم من المؤمنات اللاتي لحقن بكم في دار الإيمان ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ إذا دفعتم لهن الصداق الذي هو المهر. قال القرطبي رحمه الله تعالى: إذا أسلمن، وانقضت عدتهن، لِمَا ثبت من تحريم نكاح المشركة والمعتدة. فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح في الحال، ولها التزوج ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر. لأن الإسلام فرق بينها وبين زوجها الكافر[٢] فعالج منهج الله تعالى حال المؤمنات المهاجرات، وجعل لهن مخرجاً. وهذا من حكمة الله تعالى، وشمولية الحلول في شريعة هذا الدين القويم.

ثم اتجه البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى معالجة حال المؤمنين مع الكافرات. فقال تعالى ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن الاقدام على نكاح النساء المشركات، من أهل الأوثان، وأمر بفراقهن. وطَلَّق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له بالشرك[٣] مما يدل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٤/٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٣/١٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٣/٢٢)

على سرعة التجاوب والامتثال من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. لأن هذا أمر تشريعي من الله تعالى بفراقهن، لأنه نهي عن البقاء على نكاح الكوافر.

ومن عدل الله تعالى في قضية إعادة المهر قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ فلكم أن تسألوا الصداق الذي دفعتموه مهراً لزوجاتكم اللاتي بقين على كفرهن ﴿ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ وللكفار أن يسألوا ويطالبوا المهور التي دفعوها لزوجاتهم اللاتي تركن الكفر ودخلن في الإسلام. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: يعني: المشركين الذين لحقت زوجاتهم بكم مؤمنات، إذا تزوجن منكم. فليسأل أزواجهن الكفار من تزوجهن منكم ﴿ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ وهو المهر[1] ثم يحث الله تعالى المؤمنين على وجوب العمل بما أمر وقضى به سبحانه وتعالى بأسلوب الإلزام الذي يقتضي الوجوب، فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ فهذا الحكم الذي ذكره لكم ربكم هو حكمه عَزَّ وجل بينكم. وهو الحكم العدل بين الطرفين. فلكم وعليكم مثل ما لهم وعليهم من الحق في المهر، والعوض.

ثم يخبر عَزَّ وجل بكمال علمه وحكمته ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى عليم بكم وبأحوالكم، وما أنتم عليه، وما تحتاجون إليه من الأحكام التي تنظم علاقاتكم. وكذلك فإن ربكم سبحانه وتعالى ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بوضعه الأمور موضعها، وبما يناسب الحال، ويعالج الشأن بأحسن الأحكام والتشريع. وأن ربكم موصوف بكمال الحكمة في تشريعه، وفي أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأنكم وشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير والتدبير، بأنه سبحانه وتعالى حكيم في تشريعه، وفي أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه.

ثم تأتي بعد ذلك معالجة ما يمكن أن يكون من الكفار مع المؤمنين، في حال إن امتنعوا عن دفع ما يجب عليهم لمن ذهبت زوجته من المؤمنين إليهم. فقال تعالى ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ ومعنى الكلام: وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى من ليس بينكم وبينهم عهد من الكفار ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ فاقتصصتم لحقكم منهم ﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ أي: أعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠/٨)

أي: أن الزوج المؤمن الذي فارقته زوجته بكفرها، فإنه يُعطَى هذا الزوج المسلم من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى قول مجاهد وقتادة رحمهم الله تعالى: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فَرَّت إليهم امرأة، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً. فإذا جاءت منهم امرأة لا يُدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفته عليها. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: يعني: إن لحقت امرأة من المهاجرين بالكفار، أَمَرَ لَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُعطَى مثل ما أنفق من الغنيمة. وهكذا قال مجاهد ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرها ﴿ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ يعني: مهر مثلها. وهكذا قال مسروق وإبراهيم، وقتادة، ومقاتل، والضحاك، وسفيان بن حسين. وهذا لا ينافي الأول، لأنه إذا أمكن الأول فهو الأولى. وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار. وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير ولله الحمد والمنة[١] وفي هذا التنظيم الرباني ما يعطي المؤمن المزيد من الثقة في أن شؤونه تتولاها عناية الله تعالى، وتدبيره الحكيم بالتشريع العظيم.

ثم بعد بيان الله تعالى لِمَا يجب القيام به بين المؤمنين والكافرين في شأن الذين ذهبت أزواجهم، يأمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يجعلوا تقوى الله تعالى مرتكزهم إن كانوا مؤمنين حقيقة. فقال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ الزموا الخوف من الله ربكم تبارك وتعالى، واستحضروا مراقبته ومحاسبته لكم عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ الذي أقررتم وصَدَّقتم به، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاءكم به من الحق. مما يبين أثر التقوى في التصرفات، وأثر الإيمان في السلوك غيباً ومشهداً. وأن حقيقة التقوى تتطلب الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه. فبذلك يحثهم سبحانه وتعالى على العدل والوفاء، وعدم الجور في تعاملهم مع غيرهم من المشركين، ليخرجوا بأخلاق الإسلام وهديه، وليس بأخلاق الكفار وبغيهم

وهذا الإيعاز بلزوم التقوى، ما يبين عظيم شأنها، إذ أنها الضابط لسلوك المؤمن في كل أحواله، وتصرفاته. وهو الشأن والأمر الذي يجمع فيه بين الخوف من الله تعالى وبين رجاء رحمته. وهو الأمر الذي يَشعر فيه المؤمن بأن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه، وسيحاسبه على ما يكون منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فهاتان القاعدتان أعظم القواعد لسلوك الاستقامة في المخاطبات، وفي التعامل، وفي الأخذ والعطاء، وفي المفاوضات لأنها تستوعب جميع تصرفات المؤمن مع الغير. فإذا استحضر المؤمن قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ انضبط سلوكه في كل أمر وشأن غيباً ومشهداً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٦/٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

بعد أن توجه الخطاب من الله تعالى فيما سبق إلى المؤمنين لمعالجة قضاياهم المتعلقة بالموالاة، وبالمؤمنات المهاجرات يتوجه الخطاب بعد ذلك من الله تبارك وتعالى إلى رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم فيما يخص المؤمنات اللاتي يأتون إليه مبايعات على الإسلام. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، يعاهدنك على ألا يشركن معه أحداً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يُلحقن بأزواجهن أولاداً ليسوا منهم، ولا يخالفنك فيما تأمرهن به من معروف، فاقبل منهن إيمانهن ومبايعتهن، وعاهدهن على ذلك، واسأل الله تعالى لهن المغفرة، إن الله يغفر الذنوب لعباده، وأنه بهم رحيم سبحانه وتعالى.

وابتدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له من التوجيه الكريم، وفي ذلك تنبيه للأمة، بأن التنبيه للرسول صلى الله عليه وسلم هو ذاته تنبيه للأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال مقام النبي عليه الصلاة والسلام، ليعلوا في نفوسهم مضمونه وأهميته، فهو نداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية.

ثم بعد النداء أورد سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تكريماً له عليه الصلاة والسلام بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويهاً لغيره بفضله صلى الله عليه وسلم، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. فإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله بدرجة ومقام النبوة فإن من واجبكم كذلك أيها المؤمنون، مع زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، سواء في القلوب أو حين الخطاب والمناداة، أو غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم

صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله. وقال الذين من بعدهم حكاية عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وأفاد هذا الخطاب من الله تعالى أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطب الله تعالى رسوله في كتابه القرآن العظيم بأي رُتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم، على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، ففي سورة آل عمران قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ وفي سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ وفي سورة محمد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي سورة الفتح قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وفي جميع ذلك كانت على سبيل الإخبار به، وليس نداء وخطاباً مباشراً له صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد هذه المقدمة يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة بما يتخذه مع المؤمنات اللاتي أتين يبايعنه على الإسلام. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ إذا قصدنك المؤمنات ﴿ يُبَايِعْنَكَ ﴾ قال المفسرون: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، جاءته النساء يبايعنه، فنزلت هذه الآية[١] ومن دقائق البيان أن سَمَّاهَا اللهُ تعالى مبايعة ﴿ يُبَايِعْنَكَ ﴾ لأن المبايعة يتم بموجبها تبادل الشيء بالشيء، أي: المعاوضة بين شيئين. ففيه تنازل مقابل عطاء، تنازل وترك ما كانوا عليه قبل الإسلام، من الكفر والفسوق، مقابل أخذ الإيمان الذي هو السلعة الغالية الرابحة في الدنيا والآخرة. وهذا من دقائق الوصف لمن أراد الدخول في الإسلام، بأن يدفع مقابله ترك ما كان عليه من الكفر. فثمن الإسلام هو ترك ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى. وهذا من دقائق البيان الذي يدل على غزارة ودقة المعنى والمقصد والحال.

وتضمنت هذه المبايعة العظيمة للنساء المؤمنات بنوداً عظيمة، تبين غزارة ورفعة أخلاق الإسلام وأهدافه وغاياته، وأنه عزة ورفعة لمن أسلم، وأنه تطهير لقلبه وسلوكه من الخبائث. فكان أول شروط المبايعة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢/٨)

هو توحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فأول بنود وشروط صحة المبايعة هو توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وعدم صرفها لغير الله عَزَّ وجل. مما يبين أن مرتبة التوحيد هي أعلى المراتب، وأن الذي بعده قائم عليه. فلا قيمة لغيرها من البنود والشروط مع قيام الشرك.

ثم تلى ذلك الشرط الثاني: الذ هو ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أي: أن يمتنعن عن السرقة. مما يفيد تحريم السرقة في الإسلام. وبما يدل على أنها كانت منتشرة وسائدة بينهم، وخاصة عند النساء. ودليل على أن السارق قد أباح لنفسه أخذ حق غيره، إذا وجد لذلك سبيلا. مما يفيد ضعف الوازع والرادع له عن أن يضم مُلك غيره له خلسة. وهو دليل على انحطاط المستوى الأخلاقي. ثم تلاه الشرط الثالث: فقال تعالى ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي: يمتنعن عن الزنا. والامتناع عن الزنا يستوجب منع مقدماته، والتعرض لدوافعه. فيتعففن عنه، ويمسكن أنفسهن عنه. مما يفيد أن حياة الجاهلية جعلت الناس يستبيحون الكثير من الرذائل الخلقية. التي هذبها الإسلام، وعالجها بخير الأساليب وأعزها وأقواها، إذ رسخ في المؤمنين التقوى التي جعلت مراقبة الله تعالى فوق كل شيء. ويدل ذلك على حرمة الزنا، وأنه شرط لحصول البيعة. وفي تقديم السرقة على الزنا ما يفيد أن الغاية من ذلك هو لإظهار أن السرقة اعتداء على حق الغير، والزنا تمكين النفس للغير. مما يبين أن حقوق الناس في الإسلام محفوظة بأعلى درجات الحفظ، فيحرم التعدي عليها.

ثم تلاه الشرط الرابع: فقال تعالى ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ والقتل إما يكون بالوأد الذي كان سائداً في الجاهلية، بقتل الجنين وهو حي، وذللك بدفنه، لكونه أنثى. أو ما يكون بالإجهاض، وهو تعمد إخراج الجنين قبل موعد خروجه، حتى يسقط ميتاً. مما يبين عظيم قيمة النفس في الإسلام، وأنها مصونة في جميع أطوارها ومراحلها. ثم أعقبه الشرط الخامس ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان هو الافتراء من الكذب بالقول والفعل، ليشمل بذلك تبعات الرذائل المتنوعة. ولذلك ورد في دلالة الآية أنواعاً من الرذائل السلوكية، والأخلاق الذميمة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل معنى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ ألسنتهن بالنميمة. ومعنى ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فروجهن. وقيل: ما كان بين أيديهن: من قبلة، أو جسة. وبين أرجلهن: الجماع. وقيل المعنى: لا يلحقن برجالهن ولداً من غيرهم. وهذا قول الجمهور. وكانت المرأة تلتقط ولداً فَتُلْحقه بزوجها، وتقول: هذا ولدي منك. فكان هذا من البهتان والافتراء[١] وهو شرط يتجاوز تلك المعاني إلى ما لا يُعد من أنواع اختلاق الكذب واختراعه. خاصة وأن دلالة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ استوعبت جميع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٨/١٨)

ما يصدر من بدن الإنسان وحواسه وجوارحه كلها. ومن جزالة البيان وقوته وعمقه أن ورد سياقها بلفظ العموم، فاستوفى جميع الحالات المتعددة من أنواع البهتان وحالاته التي تشملها الدلالة، مما يمارسها بعض النساء.

ثم أعقب ذلك بالشرط السادس: الذي استوفى جميع ما لم يعينه تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ ﴾ ولا يمتنعن عن جميع ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من شرائع الدين، وأخلاقه وآدابه. ومن بلاغة البيان وغزارته أن دلالة المعروف تشمل جميع أنواع الخير من البر والصلة والنصرة والإحسان والوصية بالخير، وهو ما تعارفت النفوس عليه من الخير، ولا تنكره وإن امتنعت عن أدائه. فهو جامع لجميع شرائع الدين، مما يخبر ويأمر به، أو ينهى عنه صلى الله عليه وسلم. كما يفيد هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف من الخير. وفيه تزكية للرسول صلى الله عليه وسلم، ولشريعة دين الله تعالى بأنها حاوية للمعروف، وبعيدة عن المنكر.

ومن عظيم هذه المبايعة أن وردت نصوصها من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فلم تكن اجتهاداً منه عليه الصلاة والسلام، بل وحياً من الله تعالى في كتابه العظيم. فَيُتلى إلى أن تقوم الساعة. ثم ختم الله تعالى هذه الآية العظيمة بما يجب أن يكون لهؤلاء النسوة اللاتي يبايعن الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ فَبَايِعۡهُنَّ ﴾ اقبل مبايعتهن إذا قبلن بهذه الشروط. وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصافح امرأة قط. فعن أم المؤمنين عائشة رضي اله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصافح امرأة قط[١] فكانت المبايعة باللفظ والقبول.

ثم من إكرامهن من الله تعالى أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهن، فقال تعالى ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ ﴾ فاسأل الله تعالى لهن أن يمحو ذنوبهن، ويصفح عنهن، ويسترها عليهن، فإن الله تعالى غفور، ورحيم بالعباد.

ثم أظهر الله تعالى كريم عفوه ورحمته للعباد، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عمن تاب، وأقلع عن ذنوبه، فلا يعاقبه عليها بفضله وكرمه، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها وتنوعها. أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم

---

(١) ابن حبان، صحيح ابن حبان، برقم (٥٥٨٠)

باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد بدأ البيان بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ثم المبالغة في المغفرة والرحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الإيمان. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، ويشد بعضه بعضاً.

ثم يختم الله تعالى سورة الممتحنة بموعظة عظيمة للمؤمنين، بأن لا يتولوا أي قوم غضب ربكم عليهم بكفرهم. فقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ يا أيها المؤمنون إن كنتم طائعين لربكم، ومتبعين رسوله صلى الله عليه وسلم فاجتنبوا موالاة من سخط ربكم عليهم. وهم أولئك المتصفون بكفرهم، حتى بالبعث بعد الموت، فإن اليأس قد توطن فيهم من أن تكون هناك رجعة للآخرة. فقد يئسوا من ثواب الله تعالى في الآخرة كما هو حال الكفار الأحياء من يأسهم أن يبعث الله تعالى الذين صاحبوا القبور بموتهم، وكذلك تعني كما يئس الكفار في قبورهم من رحمة الله تعالى في الآخرة. لأنهم ماتوا على كفرهم، فلا أمل لهم في نعيم الآخرة. بما يفيد المبالغة في نكرانهم للآخرة، وللبعث والحساب والجزاء.

وقد افتتح الله تبارك وتعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. مما يفيد بالقياس عليه أهمية افتتاح الكلام في مخاطبة الناس بأحسن الكلام وأجله وأرفعه، فإنه أدعى للاستماع والقبول، والتفاعل الجميل، والبعد عن الجفاء في الخطاب. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يفتتح خطابه وتوجيه للمؤمنين بأحسن وأعظم الألقاب، وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، وتحت سلطانه عَزَّ وجل. فإن ذلك أوجب بين الناس في مخاطباتهم فيما بينهم.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما

يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام. وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان. بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

وبعد النداء لهم، ومخاطبتهم بصفة الإيمان يرشدهم تبارك وتعالى بالنهي الموجب لتحريم ما نهاهم عنه سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ لَا تَتَوَلَّوۡاْ ﴾ لا تتعاملون معهم بالمعاضدة والمساندة، فتتخذونهم خلصاء وأحباء. فإياكم أن تتولوا من غضب وسخط ربكم عليهم، لأنهم أعداء لله تعالى، وأعداء لأولياء الله تعالى. فلا تجعلوهم خلصاء وأحباء، فتبادلونهم الموالاة، ثم تُفضون إليهم بالمودة والإخلاص، فيحصلون منكم على مبتغاهم من أخباركم وأسراركم.

وقد سماهم الله تعالى ﴿ قَوۡمًا ﴾ بما يفيد أنهم جماعة كثيرة. لتشمل اليهود، والمشركين، وغيرهم من الملل والنحل. فهي قاعدة للمؤمنين ما بقيت الحياة. وهذا لا يعني منع التعامل كما سبق بيانه في هذه السورة، وإنما المنع في موالاتهم. ثم وصف الله تعالى موقفه منهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ سخط الله تعالى عليهم، لكفرهم، وعداوتهم لدينه ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ﴿ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي: لا أمل لهم في الآخرة، لأنهم غير مصدقين بالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم أوضح سبحانه وتعالى عمق يأس الكافرين، بأنه شبيه ومماثل تماماً ليأس الكفار الأحياء من أن يبعث الله تعالى الأموات من قبورهم. فقال تعالى ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ فإنهم قد بالغوا وبلغوا في يأسهم من الآخرة مبلغاً متناهياً من الإنكار له، كما هو يأس حال الكفار الأحياء من أن يبعث الله تعالى الذين صاحبوا القبور بموتهم، منذ أن مات السابقون، ومن سيلحقهم من الأموات. فلا أمل لهم في الآخرة، نتيجة كفرهم بالبعث وإنكاره. فواجبكم أيها المؤمنون إذاً أن لا تتخذوا هؤلاء الكفرة أولياء، فَتُلْقُون إليهم بالمودة، ثم ما يترتب على ذلك من إعطاء الأخبار عنكم لهم. بل احذروهم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الممتحنة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.